شو ذنب الطفولة

بقلم ناجي جواد

عزيزتي سوسن

يسعدني أن أحدثك عن أخبار سفرتي لتشاطريني متعتي ومتاعبي .

عندما وصلت بيروت العزيزة ، ذهبت مساء أمس الى (مسرح البيكاديللي) حيث شاهدت وسمعت (فيروز) في مسرحيتها الغنائية التاريخية (بترا) المدينة الصحراوية .

وقد تذكرتك يا غاليتي : وأنا وحدي أتقلص في الكرسي الاحمر المخملي ، اذ جلست على يميني سيدة لبنانية أنيقة تصحب أمها العجوز الرقيقة ، وعلى شمالي ثلاث فتيات مرحات فرحات ، تتوسطهن أجملهن وجها ، وأشهاهن شفاها ، وأرشقهن قواما ، وكأنها واسطة العقد ، تتثنى « ببنطلونها الجينز » الذي يضغط كأنه (كورسيه) كي يظهر مفاتن جسمها البض .

فتخيلتك يا عزيزتي — وهل للعشاق الرومانتيكيين غير لذة الخيال في دنيا المفاتن والجمال — أقول تخيلتك (ببنطلونك) الازرق تتوسطين ثلة من زميلاتك الطالبات عندما تنطلقن من رحاب الجامعة الى حيث تستقر بيوتكن البغدادية بصمتها وتزمتها وقديم عاداتها وتقاليدها الموروثة ، اذ لا تملكن الحرية الاجتماعية التي نالتها الفتاة اللبنانية ، كي تتوجهن الى حيث النادي العائلي لتمارسن لعبة (التنس) فتنسين هموم الصبا ، أو هواية السبح في المسبح لتغسلن متاعب الشباب ، ولا هناك مقهى عصري مثل (الدولجا فيتا) على الروشة ، كي تترشفن القهوة وتقرأن الفنجان .. عندها تتبدد غيوم الكبت وسحب الحرمان ..

أو تدرين لماذا تذكرتك يا حلوتي : لانك كنت أكثرهن تعلقا بغناء فيروز ، اذ ما زال صوتك يتردد صداه في سماء خيالي بذبذباته الصبيانية الصافية ، يوم كنت تتجاوبين بالغناء مع اغنياتها العاطفية وتجيدين أناشيدها الوطنية الرحبانية :

سيف فليشهر ...

الان الان وليس غدا .

هل تذكرين يا سوسنتي : يوم قارنت صوتها بصفاء الكريستال الشفاف فقلت بأنه يتصعد ولا يتصدع ، ويكبر ولا ينكسر .. ولم أعارضك يومها لكنني أضفت ، بأن صوتها الحريري كأنه رعشة أهداب بابلية ، وأريج عطر عود ارز لبنانية انتشر طيب عرفها في السماء العربية .

اذ حينما تصدح فيروز يخيل لي أن في نشيدها الوطني صرخة صمود صخور (صنين) .. وفي غنائها رقة ضعف العاشق وعذوبته وعذابه ...

وعندي أن في طبقات صوتها يكمن سر نشيد الانشاد ورهبة آذان المساجد ، وخشوع أرغن الكنائس وصدى تراتيل المعابد البابلية والمصرية .

لذا غنى معها جيلنا المخضرم « العتابا » بآهاتها الجبلية ، كما بات حالما بعودة الحبيبة على صدى ترجيع أغنيتها « راجعة » وأنشد معها « زهرة المدائن » ويومها هزت الاريحية عذارى القدس ، فأهدينها « المزهرية الاثرية » فملأتها فيروز طيبا وعطرا مقدسا وحملتها الى بيتها الكبير لبنان .

ولكن ... ها نحن يا عزيزتي : فقد جاءنا (غد) وقد كبر الاطفال وشاخ الشباب ، واذا بأحلامنا الحلوة ضباب وسراب ، اذ لم ترجع (الحبيبة) ولم نسترجع (الارض السليبة) رغم قدسية القسم (وك راجعة وحياة عينو راجعة) .. وجدية العزم (الان الان وليس غدا) ...!

وها اننا اليوم يا عزيزتي : نتنكر (للقضية) وما زلنا نتقاتل لاختلاف (الهوية) وغدرنا جميعا (بالمزهرية) فحطمناها في جنون الحرب الاهلية فتجدين حطامها في سوق الطويلة والنورية ، وتشاهدين شظاياها في الزيتونة والعزارية ، حتى استغرب العالم المتمدن ، اذ كيف جمع لبنان بين الحضارة والبربرية ...؟!

ولما غادرت المسرح يا حلوتي : وسرت في الشوارع الحزينة ، وما زال صوت فيروز يصدح في سماء مخيلتي .

(بحرب الكبار شو ذنب الطفولة

بحرب الكبار شو ذنب الضحكات الخجولة) .

. . . . .

واذا بي أصحو من غفوتي على صوت ابن عمي يسألني عن (هويتي) ...!

بغداد